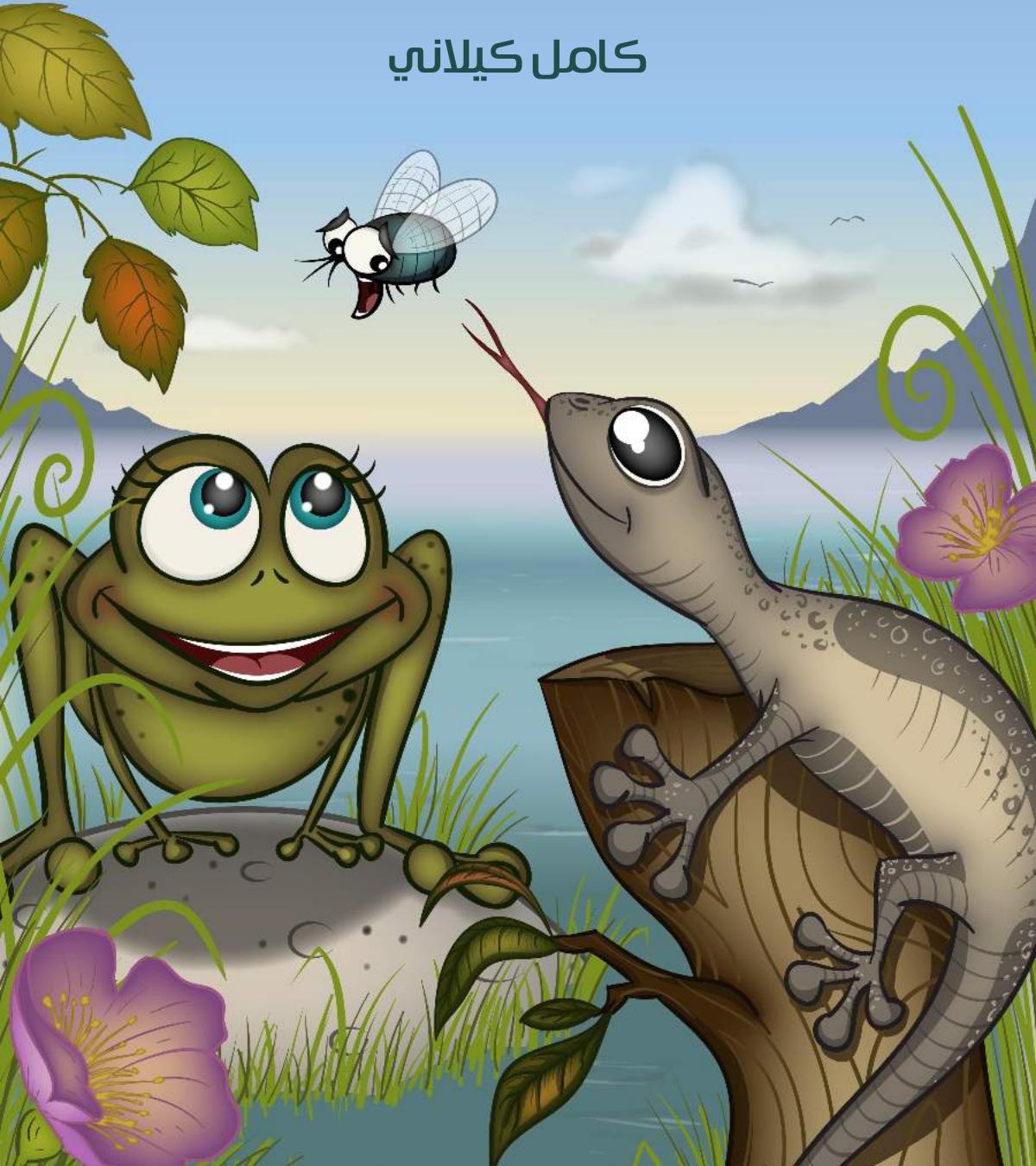


أصدقاء الربيع

كامل كيلاني



أصدقاء الربيع

أصدقاء الربيع

تأليف
كامل كيلاني

رقم إيداع ٢٠١٢/١٦٦٨

تدمك: ٩ ٩٤ ١٦ ٦٤ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: حنان بغدادبي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧

١١

١٧

٢١

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الأول

(١) العالمُ البَهِيجُ

فِي أَصِيلِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ شَهْرِ «مَارِس» هَبَّ نَسِيمٌ دَافِئٌ يُبَشِّرُ بِمَقْدَمِ الرَّبِيعِ: مَلِكِ فُصُولِ السَّنَةِ، وَيُؤَذِّنُ بَانْقِضَاءِ فَصْلِ الشِّتَاءِ.

وَقَدْ اسْتَقْبَلَتِ الْكَائِنَاتُ كُلُّهَا هَذَا الْفَصْلَ الْبَهِيجَ فَرِحَانَةً مُتَهَلِّلَةً، وَدَبَّتْ حَرَارَةُ الشَّمْسِ فَأَنْعَشَتِ النُّفُوسَ، وَأَخَذَتِ الْأَرْضُ زِينَتَهَا فَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ.

(٢) يَقْظَةُ النَّائِمِ

وَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَطْلَّ صَاحِبُنَا النَّشِيطُ: «أَبُو بُرَيْصٍ» مِنْ حُفْرَتِهِ — وَكَانَتْ عَلَى مَقَرَّبَةٍ مِنَ الطَّرِيقِ — وَحَاوَلَ أَنْ يَتَنَسَّمَ الْهَوَاءَ (يَشْمُهُ) بَعْدَ أَنْ حُرِمَهُ زَمَنًا طَوِيلًا. وَمَا أَخْرَجَ أَنْفَهُ مِنْ حُفْرَتِهِ حَتَّى بَهَرَ عَيْنَيْهِ شُعَاعُ الشَّمْسِ (غَلَبَ ضَوْؤُ الشَّمْسِ نُورُهُمَا فَكَادَ يُعْمِيهِمَا) فَلَمْ تَقْوِيَا عَلَى النَّظَرِ إِلَيْهِ، لِاعْتِيَادِهِمَا ظِلَامَ الْحُفْرَةِ أَشْهُرًا عِدَّةً، فَأَسْرَعَ «أَبُو بُرَيْصٍ» عَائِدًا إِلَى جُحْرِهِ الْمُظْلِمِ.

وَكَانَ «أَبُو بُرَيْصٍ» قَدْ نَامَ فِي تِلْكَ الْحُفْرَةِ — الَّتِي اتَّخَذَهَا دَارًا لَهُ — خَمْسَةَ أَشْهُرٍ كَامِلَةً، وَلَمْ تَرَ عَيْنَاهُ ضَوْءَ الشَّمْسِ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ؛ فَلَيْسَ فِي قُدْرَتِهِ — الْآنَ — أَنْ يُوَاجِهَ شُعَاعَهَا السَّاطِعَ، دَفْعَةً وَاحِدَةً.

(٣) «أبو بُرَيْص»

أَرَاكُمْ تَسْأَلُونَ، وَقَدْ عَرَتُكُمْ (أَلَمْتُ بِكُمْ، وَعَرَضْتُ لَكُمْ) دَهْشَةً. تَرَى: مَا هُوَ «أَبُو بُرَيْص»؟
وَلَوْ أَمَعْنْتُمْ الْفِكْرَ قَلِيلًا لَعَلَّمْتُمْ حَقِيقَتَهُ.
وَإِنِّي ذَاكِرٌ لَكُمْ بَعْضَ أَوْصَافِهِ، لَتَتَعَرَّفُوهُ بِلا عَنَاءٍ.
أَمَّا لَوْنُهُ فَهُوَ رَمَادِيٌّ، وَأَمَّا ذَنْبُهُ فَطَوِيلٌ نَحِيفٌ. وَلَهُ — إِلَى هَذَا — عَيْنَانِ حَادَّتَا
الْبَصَرِ، وَأَرْجُلٌ أَرْبَعٌ غَايَةً فِي الْقَصْرِ، وَجِسْمٌ تَغْطِيهِ الْقُشُورُ. وَهُوَ يَأْوِي إِلَى جُحْرِ ضَيِّقٍ،
فِي حَائِطٍ قَدِيمٍ مُتَهَدِّمٍ، أَوْ حُفْرَةٍ مَهْجُورَةٍ، حَيْثُ يَتَّخِذُ مِنْهَا بَيْتًا يَسْكُنُهُ.
أَطْلُكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ حَقِيقَةَ «أَبِي بُرَيْص» الْآنَ! أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ نَعَمْ: فَإِنَّ «أَبَا بُرَيْص»
هُوَ الْبُرْصُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ وَتَرَوْنَهُ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنَيْنِ فَاحِصَتَيْنِ (بَاحِثَتَيْنِ) يَعْرِوهُمَا
(يُصِيبُهُمَا) دَهْشٌ وَحَيْرَةٌ، وَهُوَ يُطْلُ عَلَيْكُمْ مِنْ سَقْفِ الْحُجْرَةِ أَوْ حَائِطِهَا.

(٤) الرُّفْقَةُ النَّائِمَةُ

وَمَا اسْتَقَرَّ «أَبُو بُرَيْص» فِي جُحْرِهِ الْمُظْلِمِ زَمَنًا يَسِيرًا، حَتَّى عَاوَدَهُ نَشَاطُهُ؛ فَانْظَرَ إِلَى
رِفَاقِهِ: الْبَرِصَةِ، فَرَأَاهَا لَا تَزَالُ نَائِمَةً مُنْذُ الْخَرِيفِ؛ فَضَحِكَ مِنْهَا سَاخِرًا، وَقَالَ: «هَا هَا
هَا! يَا لَهَا مِنْ مُتَكَاسِلَةٍ نَوُومٍ (كَثِيرَةِ النَّوْمِ)! إِنَّهَا لَا تَزَالُ رَاقِدَةً مُنْذُ الْخَرِيفِ، وَأَفْوَاهُهَا
مَفْتُوحَةٌ ... هِيَه! أَمَا أَنْ لَهَا أَنْ تَسْتَيْقِظَ مِنْ سُبَاتِهَا (نَوْمِهَا)، لَتَسْتَقْبِلَ الرَّبِيعَ الْبَهِيحَ!»
ثُمَّ اسْتَأْنَفَ «أَبُو بُرَيْص» كَلَامَهُ (عَادَ إِلَى حَدِيثِهِ)، وَهُوَ يَبْتَغِدُ عَنْ رِفَاقِهِ (أَصْحَابِهِ)،
وَيَعْجَبُ مِنْ تَكَاسُلِهَا، وَيَقُولُ: «إِنَّهَا غَارِقَةٌ فِي نَوْمِهَا، فَهِيَ صُمٌّ لَا تَسْمَعُ، وَكَأَنَّنِي — إِذْ
أُنَادِيهَا — أُنَادِي حِجَارَةً، فَوَدَاعًا، أَيُّهَا الرِّفَاقُ!»

(٥) بَهْجَةُ الرَّبِيعِ

ثُمَّ خَرَجَ «أَبُو بُرَيْص» مِنْ جُحْرِهِ، لِيَنْعَمَ بِحَرَارَةِ الشَّمْسِ تَارِكًا رُفْقَتَهُ (أَصْحَابَهُ) مُسْتَسْلِمَةً
إِلَى النَّوْمِ، وَأَنْشَبَ مَخَالِبَهُ (عَلَّقَ أَظْفَارَهُ) الصَّغِيرَةَ فِي حَائِطٍ قَرِيبٍ مِنْ جُحْرِهِ، وَاسْتَقْبَلَ
الرَّبِيعَ فَرِحَانٌ مُبْتَهَجًا.

وَمَا اسْتَقَرَّ فِي مَكَانِهِ لَحْظَةً حَتَّى تَمْلِكَهُ السُّرُورُ، فَبَرِقَتْ عَيْنَاهُ السُّودَاوَانِ، وَاضْطَرَبَ ذَيْلُهُ الطَّوِيلُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ؛ لِأَنَّهُ رَأَى فُرْصَةً سَانِحَةً لِتَحْقِيقِ مَأْرِبِهِ (رَغْبَتِهِ).

(٦) الْفَرِيسَةُ



أَتَعْرِفُونَ سِرَّ هَذَا الْفَرَحِ؟ إِنِّي مُخْبِرُكُمْ بِهِ: لَقَدْ سَمِعَ «أَبُو بُرَيْصٍ» حَرَكَةً خَفِيفَةً طَالَمَا أُعْجِبَ سَمْعُهُ بِطَنِينِهَا (صَوْتِهَا)؛ فَابْتَهَجَ وَظَهَرَ نَشَاطُهُ، وَتَرَبَّصَ (انْتَظَرَ وَتَرَقَّبَ) لَانْتِهَازِ تِلْكَ الْفُرْصَةِ السَّانِحَةِ، وَأَرْهَفَ سَمْعُهُ (أَصْغَى وَتَسَمَّعَ)، حَتَّى يَتَبَيَّنَ صَاحِبُ الصَّوْتِ. وَرَأَى «أَبُو بُرَيْصٍ» ذُبَابَةً زَرْقَاءَ، تَطِيرُ مِنْ حَوْلِهِ، وَتَطِنُ بِالْقُرْبِ مِنْهُ: «زِي ... زِي ...»؛ فَاشْتَغَلَ بِصَيْدِهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَرَصَّدَ لَهَا حَتَّى لَا تَقْلِتَ مِنْهُ، وَحَدَّقَ بَصَرَهُ فِيهَا.

ولو رأيته حينئذٍ لرأيتَ منظرًا عَجَبًا؛ فقد كان يُخرجُ لسانه ويلحسُ شفَتَيْهِ، مُحَفِّزًا لِقِتْنَاصِ فَرِيستِهِ في شَرِّهِ (حِرْصِ شَدِيدٍ) لا مِثِيلَ لَهُ.

ثُمَّ أَعَادَتِ الْحَشْرَةُ طِينِيهَا: «زِي ... زِي ...»، وطارَتْ إِلَى حَجَرٍ نَاتِيٍّ (مُرْتَفِعٍ خَارِجٍ) فِي طَرَفِ الْحَائِطِ.

فَغَضِبَ «أَبُو بُرَيْصٍ» مِنْ فِرَارِهَا (هَرَبِهَا)، وَحَزَنَهُ أَنَّهَا لَا تَكَادُ تَسْتَقِرُّ فِي أَيِّ مَكَانٍ تَحُلُّ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ دَقِيقَتَيْنِ.

وَلَمْ تَمُضْ لَحْظَةٌ أُخْرَى، حَتَّى اقْتَرَبَتْ مِنْ «أَبِي بُرَيْصٍ»، وَحَامَتْ (دَارَتْ) حَوْلَ طَائِفَةٍ مِنَ الْحَشَائِشِ، وَلَمْ تَفْطِنِ الْحَمَقَاءُ إِلَى عَيْنَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ تَرْقُبَانِهَا، وَتَتَرَبَّصَانِ لَهَا. فَقَالَ صَاحِبُنَا وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ: «لَقَدْ حَانَتِ الْفُرْصَةُ، وَإِنِّي — إِنْ أَضَعْتُهَا — لَأَكُونَنَّ مِثَالًا لِلْحَمَاقَةِ وَالْكَسَلِ!»

ثُمَّ اسْتَعَدَّ «أَبُو بُرَيْصٍ» وَتَهَيَّأَ لِقِتْنَاصِهَا — فِي حَذَرٍ وَانْتِبَاهٍ — وَقَالَ: «وَاحِدٌ ... اِثْنَانِ ...» ثُمَّ هَبَّ (نَهَضَ وَقَفَزَ) فِي الثَّالِثَةِ هَبَّةً وَاحِدَةً، فَأَصَابَ طِلْبَنَهُ (حَاجَتَهُ)، وَظَفَرَ بِصِيدِهِ السَّمِينِ.

وَامْتَلَأَتْ نَفْسُ «أَبِي بُرَيْصٍ» غِبْطَةً وَسُرُورًا لِنَجَاحِهِ وَظَفَرِهِ بِتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِهِ، وَالنَّمَعَتِ عَيْنَاهُ، وَاهْتَزَّ ذَيْلُهُ فَرَحًا وَابْتِهَاجًا.

ثُمَّ قَالَ وَلِسَانَهُ يَخْتَلِجُ (يَتَحَرَّكُ وَيَرْتَعِشُ) مِنْ فَرَطِ السُّرُورِ: «مَا أَلَذُّ طَعَامًا، وَمَا أَشْهَاءُ غِذَاءً! فَلْنَتَلَمَّسْ وَاحِدَةً أُخْرَى.»

الفصل الثاني

(١) في عُرْضِ الْحَائِطِ

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ اسْتَيْقَظَتِ الْبِرْصَةُ مِنْ سُبَاتِهَا (نَوْمِهَا) الْعَمِيقِ، وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهَا — مَعَ صَدِيقِهَا «أَبِي بُرَيْصِ» النَّشِيطِ — لِتَنْعَمَ بِحَرَارَةِ الشَّمْسِ، وَانْتَشَرَتْ عَلَى الْحَائِطِ الْقَدِيمِ تَسْتَقْبِلُ الرَّبِيعَ مُبْتَهَجَةً. وَكَانَتْ تِلْكَ الطَّائِفَةُ تَتَأَلَّفُ مِنْ: آبَاءٍ بَدِينَةٍ (سَمِينَةٍ) مُمْتَلِئَةٍ، وَأُمَمَاتٍ نَحِيفَةِ الْجِسْمِ جَمِيلَةِ الْمَنْظَرِ (أُمَّهَاتِ). وَالْأُمَمَاتُ لِلْحَيَوَانِ كَالْأُمَّهَاتِ لِلْإِنْسَانِ)، وَجَمَهْرَةٍ (جَمَاعَةٍ) مِنَ الْأَبْنَاءِ يَتَجَلَّى فِيهَا النَّشَاطُ وَالطَّيْشُ.

وَكَانَ «أَبُو بُرَيْصِ» النَّشِيطُ جَالِسًا عَلَى حَجَرٍ — بِالْقُرْبِ مِنْ رِفَاقِهِ — وَقَدْ شَغَلَهُ التَّفَكُّيرُ عَنْهَا فَلَمْ يَتَحَرَّكَ مِنْ مَكَانِهِ.

(٢) «دَابَّةُ النَّهْرِ»

فَاقْتَرَبَ مِنْهُ أَحَدُ أَصْحَابِهِ، وَسَأَلَهُ قَائِلًا: «هِيَ يَا صَاحِبِ! مَا بَالُكَ مُسْتَسْلِمًا لِلتَّفَكُّيرِ، مُبْتَعِدًا عَنْ رِفَاقِكَ؟»

فَدَهَشَ «أَبُو بُرَيْصِ» لِهَذِهِ الْمَفَاجَأَةِ، وَقَفَزَ مِنَ الدُّعْرِ (نَطَّ مِنَ الْخَوْفِ)، ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبَتِهِ: «لَقَدْ أَصَابَتْ إِلَيَّ — يَا «أُمُّ سَلْمَى» — وَقَطْعَتِ عَلَيَّ تَفْكِيرِي فِي صَدِيقَتِي الْقَدِيمَةِ: دَابَّةُ النَّهْرِ!»

فَقَالَتْ لَهُ «أُمُّ سَلْمَى»: «مَاذَا تَقُولُ؟ «دَابَّةُ النَّهْرِ»!

مَنْ هِيَ؟ فَإِنِّي لَا أَكَادُ أَذْكُرُهَا!»

فَقَالَ لَهَا «أَبُو بُرَيْصٍ»: «كَلَّا يَا صَاحِبَتِي، بَلْ أَنْتَ تَعْرِفِينَهَا وَلَا تَجْهَلِينَهَا. وَمَا أَظُنُّكَ قَدْ نَسِيتِ الصُّفْدَةَ الْخَضْرَاءَ الْجَمِيلَةَ الَّتِي كَانَتْ تَتَحَدَّثُ إِلَيَّ فِي الصَّيْفِ الْمَاضِي، وَقَدْ كُنَّا نَدْعُوهَا: «دَابَّةُ النَّهْرِ».

مَا كَانَ أَجْمَلَ عَيْنَيْهَا، وَأَبْدَعَ مَنْظَرَهَا، وَأَشْهَى حَدِيثَهَا ...! لَقَدْ نَعَمْنَا بِلِقَائِهَا زَمَنًا، ثُمَّ تَفَرَّقْنَا فِي الْخَرِيفِ؛ فَذَهَبَتْ «دَابَّةُ النَّهْرِ» إِلَى حُفْرَتِهَا — فِي أَسْفَلِ هَذَا الْحَائِطِ — هَرَبًا مِنَ الْبَرْدِ.

(٣) عَوْدَةُ الْحَزِينِ

وَإِنِّي لِأَسْأَلُ نَفْسِي: كَيْفَ حَالُ هَذِهِ الصَّدِيقَةِ الْعَزِيزَةِ؟ وَمَاذَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُهَا؟ فَهَلْ تَتَفَضَّلِينَ يَا «أُمَّ سَلْمَى» فِتْنَادِيهَا، فَإِنِّي لِلِقَائِهَا لَعَلَى شَوْقٍ شَدِيدٍ..»

فَصَاحَتْ «أُمَّ سَلْمَى»، وَصَرَخَتْ «أَبُو بُرَيْصٍ» — فِي نَفْسٍ وَاحِدَةٍ — يُنَادِيَانِ صَاحِبَتَهُمَا: «دَابَّةُ النَّهْرِ». وَلَكِنَّ «دَابَّةَ النَّهْرِ» لَمْ تُجِبْ نِدَاءَهُمَا، وَقَدْ دَعَاوَاهَا بِأَعْلَى صَوْتَيْهِمَا مَرَّاتٍ عِدَّةً.

فَعَادَ «أَبُو بُرَيْصٍ» إِلَى مَخْبِئَتِهِ مَحْزُونًا مُتَأَلِّمًا، يُفَكِّرُ فِي مَصِيرِ صَاحِبَتِهِ الْعَزِيزَةِ، وَيَخْشَى عَلَيْهَا أَحْدَاثَ الزَّمَنِ وَخُطُوبَهُ (نَوَائِبَهُ وَمَصَائِبَهُ).

(٤) بَعْدُ أُسْبُوعَيْنِ

وَمَرَّ عَلَى هَذَا الْحَادِثِ أُسْبُوعَانِ كَامِلَانِ، فَدَبَّتِ الْخُضْرَةُ فِي الشَّجَرَاتِ الَّتِي تَكْتَنِفُ جُحْرَ الْأَبَارِصِ (تُحِيطُ بِهِ). وَاجْتَمَعَتِ الْحَشَرَاتُ أُسْرَابًا (جَمَاعَاتٍ)؛ فَغَصَّ بِهَا (ضَاقَ) الْفُضَاءُ عَلَى رُحْبِهِ، وَامْتَلَأَ الْجَوُّ بَطِينِنَهَا وَأَهَازِيجَهَا (أَغَانِيَهَا) الْمَرِحَةِ. وَلَكِنَّ «أَبَا بُرَيْصٍ» كَانَ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ — عَنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ الْبَهِيجِ — بِالتَّفَكُّيرِ فِي مَصِيرِ صَاحِبَتِهِ: «دَابَّةُ النَّهْرِ». فَقَدْ شَغَلَهُ الْأَلَمُ لِإِفْرَاقِ تِلْكَ الصُّفْدَةِ الصَّغِيرَةِ الْخَضْرَاءِ وَأَدْخَلَ فِي رُوعِهِ (قَلْبِهِ) أَنَّهَا لَقِيتْ حَتْفَهَا (هَلَكَهَا).

(٥) فرحة اللقاء

وإنَّه لَغَارِقٌ فِي تَأْمُلِهِ — ذَاتَ يَوْمٍ — إِذْ رَأَى نَمْلَةً تَسْقُطُ فِي الْمَاءِ. وَاسْتَرْعَى بَصَرَهُ مَا رَأَهُ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ مِنْ فَقَاقِعِ الْهَوَاءِ الْمُتَصَاعِدَةِ إِلَيْهِ. وَلَمْ يَكُنْ يُنْعِمُ النَّظَرَ (يُدَقِّقُهُ) فِي مَصِيرِ تِلْكَ النَّمْلَةِ التَّاعِسَةِ، حَتَّى رَأَى فَمَا عَرِيضًا يَظْهَرُ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ. فَصَاحَ «أَبُو بُرَيْصِ»، وَقَدْ فَاضَ قَلْبُهُ سُورًا: «يَا لِلْسَّعَادَةِ! لَقَدْ ظَفِرْتُ بِصَدِيقَتِي الْعَزِيزَةِ: «دَابَّةَ النَّهْرِ»، وَقَدْ عَرَفْتُ جُلْبَابَهَا الْأَخْضَرَ الَّذِي يَزْدَانُ (يَتَحَلَّى) بِتِلْكَ النُّقْطِ السُّودِ. أِهْ ... لَقَدْ ظَهَرَتْ عَيْنَاهَا الْكَبِيرَتَانِ، وَظَهَرَتْ تِلْكَ الدَّائِرَةُ الذَّهَبِيَّةُ الَّتِي تُحِيطُ بِهِمَا. إِلَيَّ يَا «دَابَّةَ النَّهْرِ»! تَعَالَى، أَتَيْتُهَا الْحَبِيبَةَ. عَجِيبٌ ... إِنَّهَا لَا تُجِيبُ! فَلَا زَفْعَ صَوْتِي لَعَلَّهَا تَسْمَعُنِي ... عَمِي صَبَاحًا يَا «دَابَّةَ النَّهْرِ»، وَلَيْكُنْ نَهَارُكَ طَيِّبًا!»

(٦) «أُمُّ هُبَيْرَةَ»



فَسَمِعَ «أَبُو بُرَيْصِ» صَوْتًا أَجَشَّ (غَلِيظًا)، هُوَ نَقِيقُ صَاحِبَتِهِ. وَقَدْ أَجَابَهُ فِي بُحَّةٍ (غَلِظٍ وَخُشُونَةٍ) طَالَمَا أَلْفَ سَمَاعَهَا مِنْهَا.

«مَنْ ذَا الَّذِي يُنَادِينِي؟»

فَقَالَ لَهَا وَقَدْ اشْتَدَّ فَرْحُهُ: «هَلُمَّ يَا «دَابَّةَ النَّهْرِ»! إِلَيَّ يَا «أُمُّ هُبَيْرَةَ»! فَأَنَا صَدِيقُكَ الْقَدِيمُ «أَبُو بُرَيْصِ» الصَّغِيرُ الرَّمَادِيُّ اللَّوْنِ.»

فَأَجَابَتْهُ «دَابَّةُ النَّهْرِ»: «أه ... أَنْتَ صَاحِبِي الْعَزِيزُ: «أَبُو بُرَيْصُ»؟ مَعْدَرَةٌ يَا صَدِيقِي؛ فَإِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيَتَكَ — أَوَّلَ وَهْلَةٍ (أَوَّلَ شَيْءٍ أَرَاهُ) — لِأَنِّي لَا أَزَالُ عَاجِزَةً عَنِ التَّحْدِيقِ فِي الضُّوءِ، وَقَدْ بَهَرَنِي نُورُ النَّهَارِ، بَعْدَ أَنْ طَالَ مُكْثِي فِي ظِلَامِ الْقَاعِ.

وَالآنَ أَحْمَدُ اللَّهِ عَلَى لِقَائِكَ؛ فَقَدْ طَالَ شَوْقِي إِلَيْكَ.

فَخَبَّرَنِي: كَيْفَ قَضَيْتَ فَصْلَ الشِّتَاءِ، يَا أَبَا بُرَيْصُ؟

فَقَالَ لَهَا: «لَقَدْ قَضَيْتُهُ نَائِمًا مَعَ رِفَاقِي. فَكَيْفَ قَضَيْتِهِ أَنْتِ، يَا أُمَّ هُبَيْرَةَ؟»

فَقَالَتْ لَهُ: «لَمْ يُصِيبَنِي مَكْرُوهٌ؛ فَقَدْ غَمَسْتُ رَأْسِي فِي الطِّينِ — كَمَا فَعَلَ رِفَاقِي فِي الْخَرِيفِ الْمَاضِي — وَأَغْمَضْتُ عَيْنِي. ثُمَّ ... ثُمَّ مَاذَا حَصَلَ؟ هَذَا مَا لَا أَذْكُرُهُ. لَقَدْ نَسِيتُ كُلَّ مَا حَدَّثَ لِي بَعْدَ ذَلِكَ.

لَعَلَّ أَجْسَامَنَا قَدْ جَمَدَتْ — حِينَ اشْتَدَّتْ وَطْأَةُ الْبَرْدِ — وَأَصْبَحَتْ كَالْأَحْجَارِ الصُّلْبَةِ؛ فَقَدْ طَالَمَا سَمِعْتُ مِنْ جَدَّاتِي أَنَّ ذَلِكَ يَحْدُثُ لَنَا فِي كُلِّ شِتَاءٍ.»

(٧) التَّوْبُ الْجَدِيدُ

فَقَالَ لَهَا «أَبُو بُرَيْصُ»، وَقَدْ دَانَاهَا (اقْتَرَبَ مِنْهَا)، وَوَقَفَ أَمَامَهَا مَزْهُوًّا فَخُورًا: «أُنْعِمِي النَّظَرَ فِي شَكْلِي، لَعَلَّكَ تَكْشِفِينَ عَمَّا جَدَّ مِنْ أَنْبَائِي (أَخْبَارِي). أَعِيْدِي فِيَّ نَظْرَةَ فَاحِصٍ مُدَقِّقٍ. أَجِبِي بَصْرَكَ.

أَلَا تَرَيْنَ شَيْئًا جَدِيدًا؟»

فَقَالَتْ لَهُ «دَابَّةُ النَّهْرِ»: «كَلَّا، لَا أَرَى شَيْئًا جَدِيدًا، يَا صَاحِ!»

فَقَالَ «أَبُو بُرَيْصُ»: «أَلَا تَرَيْنَ التَّوْبَ الَّذِي أَلْبَسُهُ فِي هَذَا الْعَامِ؟ أَلَا تُبْصِرِينَ جِدَّتَهُ؟»

فَقَالَتْ لَهُ: «يَا لِلْعَجَبِ أَنْتَ لَبَسْتَ تَوْبًا جَدِيدًا؟»

فَقَالَ «أَبُو بُرَيْصُ»: «نَعَمْ يَا صَدِيقَتِي الْعَزِيزَةَ، فَقَدْ رَأَيْتُ تَوْبِي الْقَدِيمَ يَخْلُقُ وَيَرْتُّ، وَلَمْ نَفْتَرِقْ — قُبِيلَ انْتِهَاءِ الْفَصْلِ الْمَاضِي — حَتَّى يَلِيَ ذَلِكَ التَّوْبُ، وَبَدَتْ فِيهِ شُقُوقٌ كَثِيرَةٌ، فَضَجَرْتُ بِهِ (ضَاقَتْ نَفْسِي مِنْهُ وَكَرِهْتُهُ)، وَاضْطَرَرْتُ إِلَى تَرْكِهِ؛ فَحَكَّكْتُ جَسَدِي بِحَجَرٍ شَدِيدٍ صَلْدٍ؛ فَتَهَرَّأَ الرِّدَاءُ الْخَلْقُ (تَقَطَّعَ التَّوْبُ الْبَالِي) وَتَمَزَّقَ، وَاسْتَبَدَّلْتُ بِهِ — حِينَئِذٍ — تَوْبِي الْجَدِيدَ الَّذِي تَرَيْنَهُ الْآنَ. وَقَدْ ارْتَدَيْتُهُ طَوْلَ فَصْلِ الشِّتَاءِ.»

(٨) «أَبُو سَلْمَى»

فَقَالَتْ «دَابَّةُ النَّهْرِ»: «تَقَبَّلْ — يَا «أَبَا بُرَيْصَ» — تَهْنِئَاتِي بِهَذَا الثَّوْبِ الْأَبْيَقِ الَّذِي ارْتَدَيْتَهُ. وَلَكِنْ ... خَبِّرْنِي، يَا صَاحٍ: كَيْفَ حَالُ عَشِيرَتِكَ وَأَهْلِكَ؟ فَقَدْ شَغَلَنِي حَدِيثُكَ الْمُمْتَعُ عَنْ سُؤَالِكَ عَنْ أَنْبَاءِ أُسْرَتِكَ؟ كَيْفَ تَجِدُ أَبَاكَ وَإِخْوَتَكَ وَأَخَوَاتِكَ؟»

فَقَالَ لَهَا: «كُلُّهُمْ بِخَيْرٍ، مَا عِدا أَخِي الْمُسْكِينِ: «أَبَا سَلْمَى» التَّاعَسَ الْحَزِينُ!»
فَقَالَتْ «دَابَّةُ النَّهْرِ»: «وَكَيْفَ تَكُونُ عَنِّي هَذَا النَّبَأُ الْخَطِيرُ؟ كَيْفَ يَمْرُضُ أَخُوكَ فَلَا تُخَبِّرُنِي أَنَّهُ مَرِيضٌ؟»

فَقَالَ «أَبُو بُرَيْصَ»: «صَدَقْتَ — يَا عَزِيزَتِي — فَقَدْ نَسِيتُ أَنْ أَخْبِرَكَ أَنْ «أَبَا سَلْمَى» يُعَانِي أَلَمًا مُبَرِّحًا (مُتَعَبًا مُؤْذِيًا)، مُنْذُ وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ الْحَادِثُ الْجَلَلُ (العَظِيمُ). وَلَكُلِّ مَخْلُوقٍ حَظُّهُ مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ جَمِيعًا.»

(٩) قَاذِفُ الْحَصَى

فَقَالَتْ «دَابَّةُ النَّهْرِ»، وَقَدْ تَمَلَّكَهَا الذُّعْرُ (الْخَوْفُ): «تُرَى: أَيُّ حَدِثٍ مِنْ أَحْدَاثِ الدَّهْرِ قَدْ أَلَمَ بـ«أَبِي سَلْمَى» الظَّرِيفِ الطَّيِّبِ الْقَلْبِ؟»

فَقَالَ «أَبُو بُرَيْصَ»: «لَقَدْ أَلَمَ بِهِ حَدِثٌ خَطِيرٌ فِي الْخَرِيفِ الْمَاضِي ... أَلَا تَذْكُرِينَ يَا «أُمُّ هُبَيْرَةَ» — ذَلِكَ الطِّفْلُ الَّذِي كَانَ يَمُرُّ بَدَارِنَا كُلَّ يَوْمٍ؟»

فَقَالَتْ لَهُ: «أَتَعْنِي ذَلِكَ الْفَتَى الصَّغِيرَ الَّذِي يُنَادِيهِ رِفَاقُهُ بِاسْمِ «كَمَالٍ»، وَيُلْقِبُونَهُ (يُنَادُونَهُ) بِلَقَبِ «طَارِقٍ»؟»

إِنْ كُنْتَ تَعْنِيهِ، فَإِنِّي أَذْكُرُهُ، فَقَدْ طَالَمَا صَفَرَ وَغَنَى — بِالْقُرْبِ مِنَّا — صَفِيرًا مُسْتَعْدَبًا، وَغِنَاءً مُطْرِبًا.»

فَقَالَ «أَبُو بُرَيْصَ»: «هُوَ بَعِينُهُ يَا «أُمُّ هُبَيْرَةَ». وَهُوَ طِفْلٌ ظَرِيفٌ، لَا عَيْبَ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَلْهُو — أحيانًا — بِقَذْفِ الْأَحْجَارِ. وَمَا أَظُنُّهُ يَقْصِدُ بِذَلِكَ إِلَى الْإِضْرَارِ بِكَائِنٍ كَانَ؛ فَهُوَ — فِيمَا أَعْلَمُ — طَيِّبُ الْقَلْبِ.»

وَلَكِنْ: آه مِنْ هَوْلِ الصَّبِيَّةِ! وَوَاهٍ مِنْ ذَلِكَ الْحَصَى الَّذِي يَقْذِفُونَنَا بِهِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، دُونَ أَنْ يَعْرِفُوا مَدَى مَا يُلْحِقُونَهُ بِنَا — مَعَشَرَ الْحَشَرَاتِ وَالْدَّوَابِّ — مِنْ أَدَى!»

(١٠) قِصَّةُ مُحْزَنَةٍ

فَقَالَتْ «دَابَّةُ النَّهْرِ»: «خَبِّرْنِي: مَاذَا حَدَثَ لِأَخِيكَ؟»

فَقَالَ «أَبُو بُرَيْصٍ»: «لَقَدْ كَانَ «أَبُو سَلْمَى» جَائِئًا (قَاعِدًا) — فِي هَذَا الْمَكَانِ — فِي الْخَرِيفِ الْمَاضِي، يَتَلَمَّسُ الدَّفْعَ فِي حَرَارَةِ الشَّمْسِ. وَإِنَّهُ لَغَارِقٌ فِي أَحْلَامِهِ اللَّذِيذَةِ، إِذْ رَمَاهُ «كَمَالٌ» بِحَجَرٍ صَغِيرٍ كَانَ يُلْهُو بِهِ، فَصَاحَ «أَبُو سَلْمَى» مُتَوَجِّعًا مِمَّا أَصَابَهُ، فَأَسْرَعَتْ إِلَى نَجْدَةِ شَقِيْقِي، فَرَأَيْتُهُ يَتَقَلَّبُ عَلَى الْأَرْضِ — ظَهْرًا لِبَطْنٍ — وَيَتَوَجَّعُ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ. وَاجْتَمَعَتْ أَسْرَتُنَا حَوْلَهُ تُوَسِّيه، وَتُسْرِي عَنْهُ، وَهُوَ يَبْكِي وَيَشْهَقُ — وَمَا أَجْدَرُهُ بِذَلِكَ — فَقَدْ كَادَ الْحَجَرُ يَقْتُلُهُ.

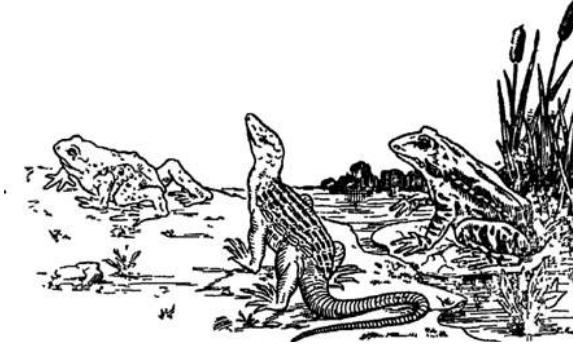
مَنْلِي لِنَفْسِكَ (تَصَوَّرِي) مِقْدَارَ مَا يُعَانِيهِ «أَبُو سَلْمَى»، بَعْدَ أَنْ قَطَعَ الْحَجَرُ ذَنْبَهُ، وَكَادَ يُودِي بِهِ (يُهْلِكُهُ)، وَيَقْضِي عَلَى حَيَاتِهِ!»
فَقَالَتْ «دَابَّةُ النَّهْرِ»: «يَا لَشَقَائِكَ، يَا «أَبَا سَلْمَى»! أَعَزُّ عَلَيَّ مَا كَابَدْتَ مِنْ أَلَمٍ! مَا أَشَدَّ حُزْنِي لِمَصَابِكَ!

فَقَالَ «أَبُو بُرَيْصٍ»: «لَقَدْ ظَلَّ يُعَانِي الْأَلَمَ زَمَنًا طَوِيلًا، وَكَانَ أَبَوَايَ يَجِيئَانِهِ بِالطَّعَامِ لِعَجْزِهِ عَنِ الْحَرَكَةِ. وَمَا زَالَ إِلَى الْيَوْمِ مَحْزُونًا، شَارِدَ الْفِكْرَ. وَقَدْ أَثَّرَ الْعُزْلَةُ وَالْوَحْدَةُ، فَمَا يَكَادُ يَبْرَحُ (قَلَمَّا يَتْرُكُ) رُكْنَ الْحَائِطِ..»

فَقَالَتْ «دَابَّةُ النَّهْرِ»، فِي لَهْجَةِ الْمَشْفِقَةِ الْحَانِيَةِ: «لَا بُدَّ لِي أَنْ أَعُوْدَهُ (أَزُوْرَهُ) فِي بَيْتِهِ، وَمَعِيَ هَدِيَّةٌ فَاخِرَةٌ. لَقَدْ اعْتَرَزْتُ أَنْ أُهْدِيَ إِلَيْهِ أَوَّلَ عَنَكِبٍ أَوْ عَنَكَبَةٍ أَصْطَادُ؛ لَعَلَّهُ يَرَى فِي هَذَا الطَّعَامِ شَيْئًا مِنَ السَّلْوَى (النَّسِيَانِ) وَالْعَزَاءِ (الصَّبْرِ)..»

الفصل الثالث

(١) «أَبُو مَعْبِدٍ»



مَالَتِ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ، وَالصَّدِيقَانِ لَا يَزَالَانِ يَتَحَدَّثَانِ أَحَادِيثَ شَتَّى. وَإِنَّهُمَا لَكَذَلِكَ إِذِ
التَفَتَ «أَبُو بَرِيصٍ» فَجَأَةً إِلَى صَاحِبَتِهِ، وَقَالَ: «هَذَا ابْنُ عَمِّكَ قَادِمًا عَلَيْنَا، يَا أُمَّ هُبَيْرَةَ».
وَهُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الْقُبْحِ وَالْدَّمَامَةِ، وَقَدْ نَسِيتُ اسْمَهُ؛ فَهَلْ تَذْكُرِينَهُ لِي مُتَفَضِّلَةً؟»
فَالْتَفَتَتْ «دَابَّةُ النَّهْرِ» إِلَى الْقَادِمِ، وَحَيَّتُهُ قَائِلَةً: «عِمَّ مَسَاءً يَا ابْنَ عَمِّي «النَّقَّاقُ»،
وَلَيْطَبَ لَيْلُكَ! كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَبَا مَعْبِدٍ؟»
فَقَالَ لَهَا «النَّقَّاقُ»: «بَخِيرٌ — يَا ابْنَةَ الْعَمِّ — مَا دُمْتَ أَنْتِ بِخَيْرٍ.»

فَاسْتَأْنَفْتُ «دَابَّةَ النَّهْرِ» قَائِلَةً: «مَا لِي أَرَاكَ تُسْرِعُ فِي حُطَاكَ، يَا «أَبَا مَعْبِدٍ»؟ أَلَا تَسْتَرِيحُ مَعَنَا قَلِيلًا؛ لِنَشْرِكَنَّ فِي أَسْمَارِنَا وَأَحَادِيثِنَا الْمُعْجِبَةِ، وَتَتَعَرَّفَ بِصَدِيقِي الْعَزِيزِ «أَبِي بُرَيْصٍ»؛ فَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَرَاكَ وَيَأْنَسَ بِكَ؟»
فَقَالَ لَهَا «النَّقَاقُ»: «مَعَذِرَةٌ — يَا ابْنَةُ الْعَمِّ — فَلَسْتُ أَسْتَطِيعُ الْبَقَاءَ مَعَكُمْ؛ لِأَنَّنِي فِي حَاجَةٍ إِلَى زِيَارَةِ حَدِيقَةِ الْكُرْنُبِ، قَبْلَ أَنْ يَضِيعَ الْوَقْتُ. فَوَدَاعًا!»

(٢) ابْنُ الْعَمِّ

فَقَالَ «أَبُو بُرَيْصٍ»: «إِنَّ ابْنَ عَمِّكَ «النَّقَاقُ» يَجْمَعُ إِلَى دِمَامَةِ الْمَنْظَرِ (قُبْحِ الْهَيْئَةِ) قَلَّةَ الذَّوْقِ، فَهَلْ أَنْتِ وَاثِقَةٌ أَنَّهُ ابْنُ عَمِّكَ حَقًّا؟»
فَقَالَتْ «دَابَّةَ النَّهْرِ»: «لَيْسَ فِي هَذَا أَقْلٌ شَكٌّ. وَلَوْ أَنْعَمْتَ النَّظَرَ، لَرَأَيْتَنَا مُتَشَابِهَيْنِ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ كَانَ مَوْطِنُهُ الْبَرُّ، وَمَوْطِنِي الْبَرُّ وَالْبَحْرُ مَعًا عَلَى أَنَّ لَهُ مِثْلِي ...»
فَقَاطَعَهَا «أَبُو بُرَيْصٍ»: «كَيْفَ يَكُونُ «النَّقَاقُ» ابْنَ عَمِّكَ، وَهُوَ بَطِيءُ الْخُطَى، يَمْشِي مُتَثَاقِلًا، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْقَفْزِ كَمَا تَقْفِزِينَ؟ وَكَيْفَ تَزْعُمِينَ أَنَّهُ يُشَبِّهُكَ، وَأَنْتِ جَمِيلَةُ الْمَنْظَرِ، حَسَنَةُ التَّكْوِينِ، رَقِيقَةُ الْجِلْدِ، لِمَاعَةِ الْبَشَرَةِ؛ عَلَى حِينِ أَرَى جِسْمَ «النَّقَاقِ» مُشَوَّهًا، تَغْطِيهِ بُثُورٌ (خُرَاجَاتٌ صَغِيرَةٌ وَدِمَامِيْلٌ) كَرِيهَةٌ بِشَعَّةٍ؟»

(٣) فَضْلُ «النَّقَاقِ»

فَقَالَتْ لَهُ: «لَسْتُ أَنْكِرُ عَلَيْكَ أَنَّهُ يَبْدُو — لِمَنْ يَرَاهُ — قَبِيحَ الْمَنْظَرِ دَمِيمَ الْخِلْقَةِ. وَلَكِنْ: أَيُّ ذَنْبٍ لَهُ فِي ذَلِكَ؟ أَتُرَاهُ كَانَ قَادِرًا عَلَى تَجْمِيلِ صُورَتِهِ فَلَمْ يَفْعَلْ؟ كَلَّا — يَا «أَبَا بُرَيْصٍ» — فَإِنَّ مِنْ كِمَالِ عَقْلِكَ وَأَصَالَةِ رَأْيِكَ أَلَّا تَغْتَرَّ بِالظَّوَاهِرِ؛ فَهِيَ لَا تَدُلُّ عَلَى حَقِيقَةِ النَفْسِ الْمُحَبَّجَةِ عَنَّا (الْمُسْتُورَةِ الْمُخَبَّأَةِ). إِنَّ «النَّقَاقَ» — لَوْ عَلِمْتَ — مِنْ كِرَامِ الضَّفَادِعِ، وَهُوَ طَيِّبُ الْقَلْبِ مَحْمُودُ الْأَثَرِ. وَمَا أَجْدَرَ النَّاسَ أَنْ يُحِبُّوهُ؛ لِأَنَّ حَيَاتَهُ وَقَفَّ عَلَى مُحَارَبَةِ الْحَشَرَاتِ الضَّارَّةِ الَّتِي تُتْلَفُ الْحَرْثُ (الزَّرْعُ)، وَتُفْسَدُ الْبُقُولُ وَالْخَضَرُ. وَلَكِنَّ النَّاسَ — لِسُوءِ حَظِّهِ — لَا يُنْصِفُونَهُ، وَلَا يَقْدُرُونَ هَذَا الصَّنِيعَ (لَا يَشْكُرُونَ لَهُ هَذَا الْجَمِيلَ). فَكَيْفَ لَا أُحِبُّ هَذَا التَّاعَسَ الْمَظْلُومَ؟»

فقال «أبو بُرَيْصٍ»: «لَقَدْ حَبَّبْتُهُ إِلَى نَفْسِي تِلْكَ الْمَآثِرُ (المَفَاخِرُ) الَّتِي قَصَصْتَهَا عَلَيَّ؛
فَمَا أَكْرَمَهُ دَابَّةً! وَمَا أَبْرَهُ مُصْلِحًا».
ثُمَّ اسْتَأْنَفَ «أَبُو بُرَيْصٍ» قَائِلًا: «لَقَدْ جَنَّ اللَّيْلُ (أُظْلِمَ)، وَلَا بُدَّ لِي مِنَ الْعُودَةِ إِلَى
دَارِي. وَأَنَا عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ أُسْرَتِي سَتَلْقَانِي غَاضِبَةً؛ لِأَنَّنِي تَأَخَّرْتُ — فِي هَذَا الْيَوْمِ — عَنِ
الْعُودَةِ حَتَّى هَذِهِ السَّاعَةِ. فَوَدَاعًا أَيُّهَا الرِّفِيقَةُ الْعَزِيزَةُ!»
فَقَالَتْ لَهُ: «إِلَى اللَّقَاءِ الْقَرِيبِ، يَا أَبَا بُرَيْصٍ.»

(٤) الْمَطَرُ

وَكَانَ «أَبُو بُرَيْصٍ» يَنَامُ عَلَى صَوْتِ الضَّفَادِعِ — كُلِّ لَيْلَةٍ — وَيُطْرَبُ لِأَنَاشِيدِهَا الْجَمِيلَةِ،
وَنَقِيقِهَا الَّذِي طَالَمَا أَلْفَ الاستِمَاعِ إِلَيْهِ.
وَبَعْدَ أُسَابِيعَ عِدَّةٍ، أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ — فَجَاءَةً — فِي وَقْتِ الصَّبَاحِ، ثُمَّ هَطَلَتْ (تَتَابَعَ
مَطَرُهَا)، وَانْهَمَرَ الْمَطَرُ (سَالَ غَزِيرًا كَثِيرًا). حَتَّى إِذَا كَادَ النَّهَارُ يَنْتَصِفُ، بَدَدَتْ أَضْوَاءُ
الشَّمْسِ مَا تَرَكَمَ مِنَ السُّحُبِ الْكَثِيفَةِ. وَكَانَ «أَبُو بُرَيْصٍ» — فِي أَثْنَاءِ هُطُولِ الْأَمْطَارِ —
مُلَازِمًا جُحْرَهُ فِي نَفْرِ — (جَمَاعَةٍ) مِنْ أُسْرَتِهِ، وَهُمْ: «بُرَيْصٌ» وَ«أَبْرَصٌ» وَ«سَامُ أَبْرَصٍ»،
وَعَيْرُهُمْ مِنَ الْأَبَارِصِ.

الفصل الرابع

(١) حديث الصديقين

فَلَمَّا تَقَشَّعَتِ السُّحُبُ وَانْجَلَتِ الْغُيُومُ عَنِ السَّمَاءِ، زَالَ عَنْهُ مَا أَلَمَّ بِهِ مِنَ الضَّجَرِ لِطُولِ احْتِبَاسِهِ، وَهَمَّ بِالْخُرُوجِ مِنْ جُحْرِهِ؛ فَرَأَى أَمَامَهُ صَاحِبَتَهُ «أُمَّ هُبَيْرَةَ»، فَقَالَ لَهَا: «آه ... لَقَدْ كُنْتُ أَفْكُرُ فِي لِقَائِكَ الْآنَ. وَإِنَّمَا مَنَعَنِي مِنَ الذَّهَابِ إِلَيْكَ مَا كَابَدْتُهُ — فِي هَذَا الصَّبَاحِ — مِنَ الضَّجَرِ وَالْأَلَمِ؛ فَقَدْ نَزَلَ الْمَطَرُ مِدْرَارًا، فَلَمْ أَسْتَطِعِ الْخُرُوجَ مِنْ جُحْرِي.

آه! مَا كَانَ أَسْمَجَهُ صَبَاحًا!»

فَقَالَتْ «دَابَّةُ النَّهْرِ»: «شَدَّ مَا أَخْطَأْتُ فِي حُكْمِكَ — يَا «أَبَا بُرَيْصٍ» — فَقَدْ كَانَ أَجْمَلَ صَبَاحٍ عِنْدَنَا — مَعَشَرَ الضَّفَادِعِ — وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيَّ بِهَذَا الْمَطَرِ — لِحُسْنِ حَظِّي — وَأَنَا أَحْوَجُ مَا أَكُونُ إِلَيْهِ.

وَمَا أَدْرِي: كَيْفَ كُنْتُ أَصْنَعُ لَوْ ظَلَّتْ حَرَارَةُ الشَّمْسِ مُرْتَفِعَةً، كَمَا كَانَتْ فِي الْأَيَّامِ السَّابِقَةِ؟»

(٢) القُرُ

ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ «دَابَّةُ النَّهْرِ» قَائِلَةً: «وَلَكِنَّ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — قَدْ أَغَاثَنِي بِهَذَا الْمَطَرِ، وَأَنْقَذَ الْقُرَّ — أَعْنِي: بُوَيْضَاتِي — مِنَ التَّلَفِ.»

فَقَالَ «أَبُو بُرَيْصٍ»: «بُوَيْضَاتِكَ؟ مَتَى كَانَ ذَلِكَ؟ كَيْفَ لَمْ تُخْبِرْنِي؟

يَا لَكَ مِنْ صَدِيقَةٍ عَجِيبَةٍ! أَعَنْ مِثْلِي تُخْفِينَ هَذَا السَّرَّ؟»

فَقَالَتْ لَهُ: «كَلَّا ... لَمْ أَخْفِ سِرِّي عَنْكَ. هَا هِيَ ذِي بُوَيْضَاتِي فِي قَاعِ الْبِرْكَةِ الصَّغِيرَةِ. انْظُرْ هَذِهِ الصُّرَّةَ الصَّفْرَاءَ وَمَا فِيهَا مِنْ نَقْطِ سَوْدٍ صَغِيرَةٍ. أَجَلْ فِيهَا بَصْرَكَ، وَأَيْدِ نَظْرَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ نَقْطَةٍ — مِنْ هَذِهِ النُّقْطِ — هِيَ بُوَيْضَةٌ مِنْ بُوَيْضَاتِي الَّتِي حَدَّثْتُكَ بِهَا الْآنَ.»

فَقَالَ «أَبُو بُرَيْصٍ»: «وَمَا بِالْكَ تُلْقِينَ بِهَا فِي الْمَاءِ، أَيُّهَا التَّاعِسَةُ؟ إِنَّكَ — إِذْ تَفْعَلِينَ ذَلِكَ — تُعَرِّضِينَهَا لِلتَّلَفِ!»

فَقَالَتْ «دَابَّةُ النَّهْرِ» مُتَأَلِّمَةً مُتَمَلِّمَةً: «لَمْ أَخْتَرِ ذَلِكَ اخْتِرَاعًا، وَلَسْتُ فِيهِ بِدَعَا (لَسْتُ أَوَّلَ مَنْ فَعَلَ هَذَا). وَلَمْ يَدُرْ بِخَلْدِي (لَمْ يَمُرَّ بِخَاطِرِي) أَنَّي أَعْرِضُ ذَرَارِيَّ — وَهِيَ قِطْعٌ مِنِّي — لِلْخَطَرِ حِينَ أُلْقِي بِهَا فِي الْمَاءِ ... فَإِنِّي رَأَيْتُ الضَّفَادِعَ — كُلَّهَا — لَا تَبِيضُ إِلَّا فِي الْمَاءِ ... وَقَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ فَعْلِهَا، وَلَمْ أَشْذَّ عَنْ هَذَا الْعُرْفِ الشَّائِعِ بَيْنَ «بَنَاتِ نَقْ» جَمِيعًا.»

(٣) بَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ



وَمَرَّ عَلَى هَذَا الْحَوَارِ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ ذَهَبَ «أَبُو بُرَيْصٍ» إِلَى صَدِيقَتِهِ «دَابَّةَ النَّهْرِ» لِيُزُورَهَا؛ فَالْفَأَهَا جَائِمَةً فِي الْمَاءِ — بِلَا حَرَكَ — وَقَدْ امْتَدَّتْ يَدَاهَا إِلَى خَلْفِهَا، وَظَهَرَتْ عَلَى سِيَمَاهَا (هَيْئَتِهَا) أَمَارَاتُ الْفَرْحِ وَالْغِبْطَةِ. وَلَمَّا رَأَتْ صَدِيقَهَا صَاحَتْ مُنْهَلَّةً فَرِحَةً: «هَلُمَّ، يَا «أَبَا بُرَيْصٍ». تَعَالَ فَاَنْظُرْ صِغَارِي خَارِجَاتٍ مِنَ الْبَيْضِ الَّذِي رَأَيْتَهُ مُنْذُ أَيَّامٍ. أِهْ! يَا لِسَعَادَتِي وَهَنَائِي!»

فَقَالَ «أَبُو بُرَيْصٍ»: «كَيْفَ تَزْعُمِينَ أَنَّ هَذِهِ الدَّوَابَّ الْغَرِيبَةَ الشَّكْلَ هِيَ صِغَارُكِ؟ كَلَّا يَا عَزِيزَتِي! كَلَّا. مَا أَنْتِ بِمُصَدِّقَةٍ! ذَلِكَ مُحَالٌ، يَا دَابَّةَ النَّهْرِ.»

فَقَالَتْ لَهُ مُرْتَاعَةً (خَائِفَةً): «لَسْتُ أَشْكُ فِي أَنَّهُمْ أَوْلَادِي، أَلَا تَرَى هَذِهِ الصَّغَارَ خَارِجَةً مِنْ بُيُضَاتِي؟ أَلَا تَرَى جَمَالَ مَنْظَرِهَا، وَحُسْنَ شَكْلِهَا؟»

(٤) ذَوَاتُ الْأَذْنَابِ

فَقَالَ لَهَا «أَبُو بُرَيْصٍ» وَهُوَ يَهْتَزُّ ضَاحِكًا: «أَيُّ جَمَالٍ تَرَيْنَهُ فِي هَذِهِ الرُّءُوسِ الضَّخْمَةِ؟ لَعَلَّكَ تَمْرَحِينَ! مَا أَظْنُكَ جَادَّةً فِي قَوْلِكَ، أَيَّتُهَا الصَّدِيقَةُ الْعَزِيزَةُ؟ أَلَا تَنْظُرِينَ إِلَى أَذْنَابِهَا؟ فَكَيْفَ تَجْلِسُ هَذِهِ الْأَوْلَادُ عَلَى الْحَشَائِشِ كَمَا تَجْلِسِينَ؟ وَمَتَى كَانَ لِلضَّفَادِعِ أَذْنَابٌ، أَيُّتُهَا الْعَزِيزَةُ الْبَلْهَاءُ؟»

فَاشْتَدَّتْ حَيْرَتُهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ كَيْفَ تُجِيبُ صَاحِبَهَا. وَسَاوَرَهَا الرَّيْبُ (أَسْرَعَ إِلَيْهَا الشُّكُّ)؛ فَلَمْ تَجْزَمْ بِشَيْءٍ. وَإِنَّمَا اسْتَوَلَى عَلَيْهَا الْحُزْنُ؛ لِأَنَّهَا رَأَتْ تِلْكَ الدَّوَابَّ الرَّمَادِيَّةَ اللَّوْنِ لَيْسَ لَهَا أَيْدٍ تَسْبُحُ (نَعُومُ) بِهَا فِي الْمَاءِ، وَعَجِبَتْ مِنْ أَذْنَابِهِنَّ عَجَبًا شَدِيدًا.

(٥) أَكَلُ النَّبَاتِ

وَحَانَتْ مِنْ «أَبِي بُرَيْصٍ» التَّفَاتَةُ، فَصَاحَ مَدْهُوشًا: «انْظُرِي — يَا صَدِيقَتِي — هَاكِ مَوْلُودًا يَأْكُلُ مِنَ النَّبَاتِ الَّذِي فِي قَاعِ الْمَاءِ! فَخَبِّرِينِي بِرَبِّكَ: هَلْ رَأَيْتِ — طُولَ عُمْرِكَ — ضِفْدَعًا يَأْكُلُ النَّبَاتَ؟»

فَقَالَتْ «دَابَّةُ النَّهْرِ» وَقَدْ كَادَ الْبُكَاءُ يَعْقُدُ لِسَانَهَا: «مَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ، فَإِنِّي عَلَى يَقِينٍ أَنَّ هَذِهِ الدَّوَابَّ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ بُيُضَاتِي!»

فَقَالَ «أَبُو بُرَيْصٍ»: «هِيَ يَا «دَابَّةُ النَّهْرِ». لَقَدْ عَرَفْتُ حَقِيقَةَ أَمْرِ هَذِهِ الدَّوَابِّ الصَّغِيرَةِ، وَقَدْ أَيْقَنْتُ الْآنَ أَنَّهَا: سَمَكٌ.»

فَوَدَّعَتْهُ «دَابَّةُ النَّهْرِ»، وَقَالَتْ وَهِيَ مَحْزُونَةٌ مُتَأَلِّمَةٌ: «لَقَدْ جَهِلْتُ — مَعَ حِرْصِي عَلَى الْمَعْرِفَةِ — فَمَا أُدْرِى شَيْئًا!»

(٦) أُمْنِيَّةٌ تَتَحَقَّقُ

وفي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ «أُعْطُسُ» الْحَارَّةِ، تَمَدَّدَتْ جَمَهْرَةٌ مِنَ الْأَبَارِصِ عَلَى الْحَائِطِ، وَاسْتَقْبَلَتْ أَشِعَّةَ الشَّمْسِ، وَاسْتَسْلَمَتْ لِلدَّفْعِ وَالرَّاحَةِ، وَكَانَ مِنْ عَادَتِهَا أَنْ تَقْضِيَ وَقْتَ الْهَضَمِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَكَانِ، مُحِلَّةً (مُرْتَكِنَةً مُسْتَسْلِمَةً) إِلَى الرَّاحَةِ فِي تِلْكَ الْجِهَةِ الْمُشْمِسَةِ الْحَبِيبَةِ إِلَى نُفُوسِهَا.

وإِنَّمَا لِكَذَلِكَ، إِذْ أَقْبَلَتْ عَلَيْهَا «دَابَّةُ النَّهْرِ» بَعْدَ أَنْ صَعِدَتْ إِلَى سَطْحِ الْمَاءِ، وَصَاحَتْ تُنَادِي «أَبَا بُرَيْصَ» بِأَعْلَى صَوْتِهَا — وَقَدْ اسْتَوَلَى عَلَيْهَا الْفَرَحُ — قَائِلَةً: «إِلَيَّ يَا صَدِيقِي الْعَزِيزِ. هَلُمَّ لِأَرْفَ إِلَيْكَ بُشْرَى مِنَ الْبُشْرِيَّاتِ السَّارَةِ الَّتِي تَمَلَأُ قَلْبَكَ غِبْطَةً وَتُسْكِنُ الْبُهْجَةَ خَلْدَكَ (نَفْسَكَ)!»

فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا «أَبُو بُرَيْصَ» مُسْتَفْسِرًا عَنْ جَلِيَّةِ الْخَبَرِ (حَقِيقَتِهِ)؛ فَابْتَدَرَتْ (أَسْرَعَتْ) قَائِلَةً: «لَقَدْ أَيقَنْتُ — الْيَوْمَ — أَنَّ تِلْكَ الدَّوَابَّ الَّتِي شَكَّكْتَنِي فِي حَقِيقَتِهَا — مُنْذُ أَيَّامٍ — لَيْسَتْ إِلَّا أَوْلَادِي.

وَقَدْ زَالَ اللَّبْسُ وَالشُّكُّ، وَتَأَكَّدَ لِي ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ عَمِّي حِينَ رَأَاهَا. وَهَا أَنَا ذِي أَدْعُوكَ لَزِيَارَتِهَا، وَلَيْسَ الْخَبَرُ كَالْعِيَانِ.»

(٧) «بَنَاتُ هُبَيْرَةَ»

فَسَارَ مَعَهَا «أَبُو بُرَيْصَ» حَتَّى وَصَلَ إِلَى شَاطِئِ الْبَرَكَةِ، فَرَأَى مَا أَدْهَشَهُ وَحَيَّرَهُ. أَتَعْرِفُونَ مَاذَا رَأَى؟

لَقَدْ أَبْصَرَ «بَنَاتِ هُبَيْرَةَ»: تِلْكَ الدَّوَابَّ الرَّمَادِيَّةَ اللَّوْنِ، قَدْ نَبَتَتْ الْإِيْدِي فِي أَجْسَادِهَا، وَقَصُرَتْ أَدْنَابُهَا، فَاشْتَدَّ عَجَبُهَا، وَالتَفَتَ إِلَى «دَابَّةِ النَّهْرِ» يَسْأَلُهَا الصَّفْحَ قَائِلًا: «لَقَدْ أَخْطَأْتُ حِينَ شَكَّكْتُكَ فِي أَمْرِ هَذِهِ الدَّوَابَّ؛ فَاسْمَحِي لِي أَنْ أَرْفَ إِلَيْكَ تَهْنِئَاتِي الْخَالِصَةَ بِأَطْفَالِكِ الصَّغِيرَاتِ.»

فَقَالَتْ «دَابَّةُ النَّهْرِ» مَرْهُوَّةً فَخُورَةً: «أَشْكُرُ لَكَ إِخْلَاصَكَ وَوَلَاءَكَ. وَقَدْ حَمَدْتُ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَفْجَعْنِي فِي أَمْلِي. وَقَدْ أَخْبَرَنِي عَمِّي — حِينَ سَأَلْتُهُ — أَنَّ هَذِهِ الْبَنَاتِ الصَّغِيرَةَ — حِينَ تَنْتَهِي مِنْ فِتْرَةِ الطُّفُولَةِ — تَصْغُرُ رُءُوسُهَا شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى

تَتَنَاسَبُ هِيَ وَأَجْسَادُهَا. ثُمَّ تُصْبِحُ — بَعْدَ ذَلِكَ — ضَفَادِعَ تَامَّةَ التَّكْوِينِ مِثْلَنَا، جَمِيلَةَ الشَّكْلِ، مُخَضَّرَةَ اللَّوْنِ، حَسَنَةَ التَّقْسِيمِ وَالتَّقْوِيمِ.»

(٨) عاقبة الطَّيْشِ

ثُمَّ سَمِعَ الصَّدِيقَانِ صَوْتًا ضَعِيفًا يَنَادِي وَيُغَوِّثُ (يَسْتَعِيثُ) طَالِبًا النَّجْدَةَ. فَالْتَفَتَا يَتَعَرَّفَانِ مَصْدَرَ الصَّوْتِ. وَمَا أَذْرَكَا جَلِيَّةَ الْأَمْرِ (حَقِيقَتَهُ)، حَتَّى هَالَهُمَا وَرَوَّعَهُمَا (خَوَّفَهُمَا وَرَعَّبَهُمَا) مَا حَدَثَ. فَقَدْ رَأَى لِفْلًا مِنْ أَطْفَالِ «دَابَّةِ النَّهْرِ» اسْمُهُ: «الْعُلْجُومُ»، دَفَعَهُ الطَّيْشُ وَالْغُرُورُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْبَرْكَةِ إِلَى الشَّاطِئِ. وَلَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ حَتَّى اشْتَبَكَ فِي الْحَشَائِشِ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْعُودَةِ مِنْ حَيْثُ أَتَى. وَارْتَمَى ذَلِكَ الطِّفْلُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَسَرَتْ الرَّعْدَةُ وَالرَّعْشَةُ فِي جِسْمِهِ الصَّغِيرِ.

فَسَأَلَ «أَبُو بُرَيْصٍ» صَدِيقَتَهُ مُتَعَجِّبًا: «مَاذَا أَصَابَ التَّاعَسَ الْمُسْكِينَ؟ لَقَدْ يُحِيلُ إِلَى رَأْيِهِ أَنَّهُ يَخْتَنِقُ وَيُوشِكُ أَنْ يَفْقِدَ الْحَيَاةَ.»
فَقَالَتْ «دَابَّةُ النَّهْرِ»: «صَدَقْتَ — يَا صَاحٍ — فَقَدْ أَخْبَرَنِي عَمِّي أَنَّ أَطْفَالَنَا تَتَنَفَّسُ فِي الْمَاءِ كَمَا يَتَنَفَّسُ السَّمَكُ. وَلَقَدْ أَخْطَرَ هَذَا الطَّائِشُ نَفْسَهُ (أَدْخَلَهَا فِي الْخَطَرِ، وَعَرَضَهَا لِلْهَلَاكِ) حِينَ خَرَجَ إِلَى الشَّاطِئِ. وَهَا هُوَ ذَا يَخْتَنِقُ — كَمَا تَرَى — فَكَيْفَ أَصْنَعُ؟»
ثُمَّ عَنَّتْ (عَرَضَتْ) لَهَا فِكْرَةً مُوَفِّقَةً سَدِيدَةً؛ فَاسْرَعَتْ إِلَى طِفْلِهَا، وَدَفَعَتْهُ بِفَمِهَا قَلِيلًا، ثُمَّ قَذَفَتْ بِهِ إِلَى الْمَاءِ.

فَلَبِثَ الْمُسْكِينُ طَافِيًا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ بِلَا حَرَكَ، وَقَدْ يَبْسُ مِنْ حَيَاتِهِ كُلِّ مَنْ رَأَاهُ. وَلَكِنَّ إِخْوَتَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ أَسْرَعُوا إِلَيْهِ، وَظَلُّوا يَسْبَحُونَ (يَعُومُونَ) حَوْلَ «الْعُلْجُومِ»، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ بِعُيُونٍ مَلُؤَهَا الْجَزَعُ وَالْأَسَفُ. فَقَالَتْ «أُمُّ هُبَيْرَةَ» فِي حُنُوٍّ وَإِشْفَاقٍ: «لَقَدْ مَاتَ وَلَدِي الْعَزِيزُ. فَوَا حَزَنًا عَلَيْهِ!»

فَصَاحَ «أَبُو بُرَيْصٍ» فَجَاءَةً: «كَلَّا. لَمْ يَمُتْ، وَلَا يَزَالُ فِي الْأَمَلِ فُسْحَةً — يَا صَدِيقَتِي — فَإِنِّي أَرَى جِسْمَهُ يَتَحَرَّكُ. هَا هُوَ ذَا يُحَرِّكُ إِحْدَى يَدَيْهِ.»

(٩) نَجَاةُ «الْعُلْجُومِ»

فَدَبَّ الْأَمْلُ فِي نَفُوسِ الْحَاضِرِينَ، حِينَ رَأَوْا ذَلِكَ الضُّفْدِعَ الصَّغِيرَ يَعُودُ إِلَى الْحَيَاةِ شَيْئًا فَشَيْئًا. وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ اسْتَعَادَ ذَاكِرَتَهُ، وَسَأَلَ مَنْ حَوْلَهُ: «تَرَى أَيْنَ أَنَا؟ وَمَاذَا أَصَابَنِي؟ أَهْ! لَقَدْ ذَكَرْتُ الْآنَ كُلَّ شَيْءٍ، وَعَرَفْتُ خَطَرَ مَا أَقْدَمْتُ عَلَيْهِ حِينَ قَفَزْتُ مِنَ الْمَاءِ إِلَى كَوْمَةِ الْحَشَائِشِ. وَإِنَّمَا حَفَزَنِي إِلَى ذَلِكَ شَوْقِي إِلَى رُؤْيَا هَذَا السَّيِّدِ الطَّوِيلِ الْأَنْفِ، الَّذِي يَتَحَدَّثُ — أَكْثَرَ الْوَقْتِ — مَعَ أُمِّي الْحَنُونِ. وَلَنْ أُجَاوِزَ مَرَّةً أُخْرَى، حَسْبِيَ أَنْ كُتِبَتْ لِي السَّلَامَةُ بَعْدَ الْيَأْسِ!»

ثُمَّ هَتَفَ الضُّفْدِعُ قَائِلًا: «شُكْرًا لِلْمَاءِ!»
فَرَدَّدَتْ إِخْوَتُهُ هَتَافَهُ، فَرِحَةً مُسْتَبْشِرَةً.

ثُمَّ عَاوَدَهُ الْمَرْحُ، وَشَارَكَهُ فِي مَرَجِهِ أَخَوَاتُهُ: الشَّرْعُ، وَالشَّرْنُوعُ، وَأَبُو هُبَيْرَةَ، وَدَابَّةُ الْمَاءِ، وَالْقَرَّةُ، وَالْعُدْمُولُ، وَالْهَاجَةُ، وَالْهُوَيْجَةُ. وَغَاصُوا مَعَهُ إِلَى قَاعِ الْمَاءِ مَسْرُورِينَ بِنَجَاتِهِ مِنْ هَلَكَ مُحَقَّقٍ.

(١٠) دُرُوسُ النَّطِّ

وَلَمْ يُوفِ الصَّيْفُ عَلَى نِهَايَتِهِ حَتَّى كَبُرَتْ أَطْفَالُ «دَابَّةِ النَّهْرِ» وَاسْتَحَفَّتْ أَذْنَابُهَا الطَّوِيلَةَ، وَسَمِنَتْ أَجْسَادُهَا النَّحِيلَةَ. وَكَانَتْ «بَنَاتُ هُبَيْرَةَ» — فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ — تُقْبِلُ عَلَى الطَّعَامِ فِي شَرِّهِ عَجِيبٍ. وَقَدْ نَشَأَتْ لِكُلِّ ضِفْدِعٍ مِنْهُنَّ يَدَانِ قَصِيرَتَانِ، وَرِجْلَانِ طَوِيلَتَانِ.

وَقَدْ عَرَاهُنَّ (أَلَمْ يَهْنِ) الْخَوْفُ حِينَ خَرَجْنَ مِنَ الْمَاءِ — لِلْمَرَّةِ الْأُولَى — وَلَكِنَّ أُمَّهِنَّ شَجَعَتْهُنَّ عَلَى اتِّبَاعِهَا؛ حَتَّى إِذَا وَصَلْنَ إِلَى الْحَشَائِشِ، ظَلَلْنَ يَمُرَّنَ أَنْفُسَهُنَّ عَلَى الْقَفْزِ وَالنَّطِّ. وَقَدْ أَوْصَتْ «أُمُّ هُبَيْرَةَ» بَنَاتَهَا أَنْ يَفْتَصِدْنَ فِي قَفْزِهِنَّ؛ حَتَّى لَا يَدْفَعَهُنَّ الطَّيِّشُ وَالْحَمَاقَةُ إِلَى الْهَلَاكِ. وَقَدْ اجْتَمَعَتِ الضُّفَادُ الْكَبِيرَةُ أُسْرَابًا (جَمَاعَاتٍ)؛ لِتَشْهَدَ ذَلِكَ التَّمَرِينَ، وَأُعْجِبَتْ بِمَا أَظْهَرَتْهُ تِلْكَ الصَّغِيرَاتُ مِنَ الْجَذْقِ وَالْبَرَاعَةِ وَالذِّكَا. عَلَى أَنَّ إِحْدَى هَذِهِ الضُّفَادِ، وَاسْمُهَا «الْقَرَّةُ»، قَفَزَتْ — بِلَا تَبَصُّرٍ — قَفْزَةً عَالِيَةً؛ فَهَوَتْ عَلَى أَنْفِهَا، فَتَهَشَّمَ وَتَحَطَّمَ.

(١١) دُرُوسُ الصَّيْدِ

وما زالت «دَابَّةُ النهر» تُعَلِّمُ ذُراريها (أولادها): كَيْفَ تَبْتَلِعُ الحَشَرَاتِ والخَنَافِسَ التي تُصَادِفُها في طريقها، وكَيْفَ تَصْطَادُ أَسْرَابَ الدُّبَابِ (جَمَاعَاتِهِ) الرَّاقِصَةَ حَوْلَ الغَدِيرِ، وهو أَشْهَى طَعَامٍ تَرْتَاخُ إِلَيْهِ الضَّفَادِعُ. وما تَذَوَّقَتْهُ صِغارُها حَتَّى أَثَرَتْهُ (اخْتَارَتْهُ وَفَضَّلَتْهُ) على كُلِّ شَيْءٍ وَلَمْ تَرْضَ بِهِ بَدِيلًا.

(١٢) دُرُوسُ المَوْسِيقَى

وَاعْتَرَمَتْ «أُمُّ هُبَيْرَةَ» أَنْ تُعَلِّمَ صِغارَها: كَيْفَ تَنَقُّ (كَيْفَ تَصِيحُ)، وكَيْفَ تَنْقِنُقُ (كَيْفَ تُصَوِّتُ صَوْتًا يَفْصِلُ بَيْنَهُ مَدٌّ وَتَرْجِيعٌ)، وكَيْفَ تَنْشُدُ أَجْمَلَ الْأَنَاشِيدِ، وَتُغَنِّي أَحْسَنَ الْأَغَانِي الْمُسْتَفِيزَةِ الشُّهُرَةِ بَيْنَ الضَّفَادِعِ؟ وَكَانَ صَوْتُهَا أَبَحَّ (فِيهِ بَحَّةٌ وَخُشُونَةٌ وَغِلْظٌ) شَأْنٌ أَمَاتِ الضَّفَادِعِ دَائِمًا؛ فَلَمْ تَرِ بُدًّا مِنْ أَنْ تُوصِي شَيْخَ الضَّفَادِعِ أَنْ يَلْقَنَهُنَّ المَوْسِيقَى بِصَوْتِهِ الْجَمِيلِ.

وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَبْنَاءُ تُقْبَلُ عَلَى دُرُوسِهَا فِي جِدِّ وَاجْتِهَادٍ وَحَمَاسَةٍ، فَإِذَا انْتَهَتْ مِنْ حِفْظِ التَّمْرِينَاتِ المَوْسِيقِيَّةِ، انْتَقَلَتْ إِلَى التَّدْرِيبِ عَلَى إلقاءِ الْأَغَانِي الشَّعْبِيَّةِ الذَّائِعَةِ بَيْنَ الضَّفَادِعِ.

(١٣) أناشيِدُ الضفادِعِ



وكانتِ الضَّفَادِي (الضَّفَادِعُ) تُنْظِمُ صُفُوفَهَا عَلَى شَاطِئِ الْغَدِيرِ، حَيْثُ تَقْضِي السَّاعَاتِ الطَّوَالَ، وَهِيَ لَا تَكَلُّ وَلَا تَنِي (لَا تَضْعُفُ هِمَّتُهَا وَلَا يَفْتُرُ عَزْمُهَا) عَنْ مَوَاصِلَةِ النَّقِيقِ. وَمَتَى تَأَلَّقَتْ (أَضَاءَتْ وَلَعَتْ) كَوَاكِبُ السَّمَاءِ، رَأَيْتَ صِغَارَ الضَّفَادِعِ جَاثِمَاتٍ (مُقِيمَاتٍ) عَلَى أَوْراقِ «النِّيلُوفَرِ»، حَيْثُ تَقْصُ عَلَى الْعَالَمِ أَحْلَامَ سَعَادَتِهَا. وَلَا تَزَالُ نُحْيِي مَصَابِيحَ السَّمَاءِ (نُجُومَهَا) بِأَنَاشِيدِهَا حَتَّى تَسْتَسْلِمَ إِلَى رُقَايِهَا الْهَنِيَّ فِي أَمْنٍ وَسَلَامٍ.

(١٤) خاتمة القصة

وهكذا عاشت «دابة النهر» هانئة وَسَطَ أَسْرَتِهَا الْجَمِيلَةِ، وعاش — إلى جانبها — صديقها الوفيُّ المخلص: «أبو بريص»، يُقاسِمُهَا السَّعَادَةَ وَالْهَنَاءَ.